على دروب الحياة

سعيد فياض

كتب للمؤلف

(١) "براعم"، ديوان شعر صدر في صيدا عام ١٩٥١م، ٩٦ ص حجم صغير.

(٢) "عبير"، ديوان شعر صدر في بيروت عام ١٩٥٥م، ١٦٠ ص، حجم متوسط.

(٣) "صور متحرّكة"، كتاب يحوي مجموعة مقالات وقصص صغيرة وجدانية واجتماعية ومجموعة تحقيقات صُحفية ذات دلالة اجتماعية ... صدر في بيروت عام ١٩٥٦م، ١٩٢ ص، حجم متوسط.

(٤) ديوان "هُتاف الوجدان"، الجزء الأول، صدر في كمبريدج المملكة المتحدة عام ١٩٨٤م، ٢٥٤ ص، حجم كبير.

(٥) "على دروب الحياة"، صدر في فريبورغ، سويسرا، كتاب يتضمن العديد من المقالات والقصص الوجدانية والاجتماعية المنشورة في أمّهات المجلاّت والصحف ما بين ١٩٦٤ – ١٩٧٢م.

(6) ديوان "هتاف الوجدان"، بجُزأيه الأول والثاني، صدر في بيروت عام ١٩٩٤، ٥٥٥ ص، حجم كبير.

(٧) قيد إتمام الكتابة «إبن الأفندي» وهو مُجَلد قد يتجاوز سبعمئة صفحة، في جزأيه الحافلين بالمعاناة والمفارقات وحلاوة الذكريات ؟!

مقدمة

قارئي العزيز

... بكل ما في حسن الظن من قدرة على بعث التفاؤل والأمل أضع بين يديك مجموعة مقالات اجتماعية ووجدانية، هي غيض من فيض، مما كان له حظ النشر في صحف ومجلات رصينة بين الخمسينات والسبعينات من هذا القرن الحافل بالجديد يوماً بعد يوم....

وهذه المجموعة التي أقدمها إليك في هذا الكتاب، كُتب لها الإفلات من غبار الأرشيف والإهمال، لتكون شهيدة على أن ما سبق من السنين المحدودة الآلام رغم تبدد احلامها، تظل أفضل وأوفر شعوراً بانفراج كروبنا وظلماتنا ومآسينا الخلقية والقومية والإنسانية مما نعانيه عنتاً وكبداً وشعوبية في هذه السنين المتألقة بالمعارف والعلوم والاكتشافات المذهلة، بينما نعيش في دُجُنَّة جاهليتها خلقاً وضميراً وعبادة أوثان مُقامة في ذواتنا على أعمدة الأنانية والشرور والآثام، مما يُعيد الإنسان إلى غرائزه في بذاءة القول وسفاهة العمل إلا القليل ممن رحمهم الله فحصّنهم بالهداية، وهم أقرب إلى الندرة منهم إلى القلة !!

صحيح ما يقوله البعض بأن مآسي الحياة وصعوبة تحقيق الذات وحتى الضياع بين المتاهات ليست وليدة اليوم، وأن متاهاتنا متوارثة، وأن شرور الدنيا هي الغالبة على خيرها منذ كان الوجود....

ولكن الأصح هو أن أمسنا كان جهلاً وضلالة، أما يومنا فهو العلم المشرع الأبواب، ونحن نعيش اليوم أسوأ ظروف التعايش البشري، محرومين من نعمة المحبة، مغالين في عبادة الذات، موغلين في البعد عن الصراط المستقيم، وكلما ازددنا علماً ومعرفة واكتشافاً، زاد بنا المروق من القيم الروحية الفضلى حتى لكأننا في كثرتنا المتكاثرة يوماً إثر يوم ننظر إلى المدنية الحقة والحضارة الصحيحة بعيون الخفاش في ظهيرة يوم صيفي ساطع الأضواء، بحيث لا يستطيع الرؤية، ولا يميز بين التخبط واجتياز الأخطار ... ولكن الخفاش يولد عاجزاً عن رؤية الضوء، ونحن نلد العجز ونأنس به ؟!!!

قارئي العزيز

لن أطيل عليك المقدمة. ففي المقالات التي أرجو أن تقرأها بما أتوسّمه فيك من وعي وتقدير سليمين، ما يغنيني عن الإطالة، وما يفسح لي مجال التحدث إليك عن سبب طبع ونشر مقالات حظيت بنصيبها من القراءة الواعية خلال عقدين ونصف من الزمن، يوم لم يكن لأفلام الجنس والرعب المعلبة، طاغوت ينتهك حرمة الكتاب، ويوم لم تكن الكوارث الوطنية ذات حجم مأساوي يجعل عاشق الأدب قتيل الأخبار المسموعة والمكتوبة بطريقة مدروسة أو مدسوسة، هدفها الأول إشاعة المزيد من الضياع، والمتواتر من الألم والعصي على المعالجة في عصر فوضى المعلومات والإشهار المرئي والمسموع الجارف ...

وحده، حبي لك يا صديق المدى، وثقتي بأن للعقل السليم يقظة لا بد منها، وأنه مهما تراكمت وتزاحمت تيارات الأمواج في المحيطات، يبقى للراغبين باللآلىء، وللمستمتعين بالدفء والسبح والغطس أمكنة تعجز التيارات الهوجاء، مهما تصارعت، عن حرمانهم من المتعة البريئة والصيد الثمين والشعور بأن الحياة جميلة لا مجال لليأس من حلاوتها، ولا مكان فيها للقانطين من رحمة الله بما وهبهم من العقل والإيمان لاختيار دروب الحياة الآمنة ... والله المستعان.

سعيد فياض

على دروب الحياة.

... على دروب الحياة، يسير الركب البشري محققاً وجوده الفاعل مستخدماً شتى وسائل التحقيق، يحدوه الأمل بأن يكون ذا أهمية وذا قيمة في هذا الوجود....

... والناس، كما يختلفون في شكولهم وأفكارهم، يختلفون في استعمال الوسائل التي يتخذونها سبلا لتحقيق ذواتهم على وجه البسيطة ....

ومن هذا المنطلق، نستطيع تبرير الاختلاف بين النتائج التي يحققون ... فمنهم من يسلك السبل المستقيمة، ومنهم من تلتوي به الدروب، ومنهم من يحجم عن السير جهلاً منه بالقويم من الوسائل أو خوفاً من الانزلاق في دروب تكثر فيها الحفر والأخاديد والمنعطفات.

ومن خلال سير الناس على مختلف الدروب، تكون النتائج مرهونة إلى حد كبير بالطريقة والوسيلة الموصلتين إلى الغاية ....

لهذا، لا غرابة في فشل بعض أو في نجاح بعض آخر لأن الخطى هي التي تقرر مبدئياً طول الشوط أو قصره، واستقامة الخط أو التواءه، أو الوصول إلى نهاية الدرب أم الوقوف عند بعض منحنياته.

ولعل أهم ما يعنينا في هذه العجالة، هو إدراكنا بأن أقصر الطرق إلى الغاية هو الطريق المستقيم، وأبعد الطرق عن الهدف القويم، هو الدرب المعوج المليء بالأخاديد والنتوءات والمنعطفات.

إذًا ... علينا إذا شئنا الوصول إلى أهدافنا الناجحة، حيث نحقق ذواتنا بالشكل السليم الواضح علينا أن نسلك دروب الاستقامة، والطرق البعيدة عن الالتواء كيلا نتيه في مهب الرياح ونعجز عن تحقيق الذات الإنسانية، كما أرادها لنا الخالق الحكيم بما حبانا من عقل وإدراك وإيمان بالقيم المرتكزة على أعمدة الوضوح في الهدف والكرامة في الوسيلة والاستقامة في الخطى .... وإلا ، كان شأننا شأن المخلوقات التي تحمل أبصاراً ولا تحمل بصائر، وتسيرها الغرائز دون أن تحتكم في تصرفاتها إلى مفاهيم العقل المميز، والإدراك الصحيح السليم من رعونة الجموح !

الناس والوفاء .

.... الوفاء، هو الاعتراف بالأخذ والرد عليه بالعطاء .... وقد يكون الوفاء اعترافاً بالأخذ فقط، دون إلزام بالعطاء عندما يكون المطالب به قاصراً عن الرد، عاجزاً عن أداء التزاماته، بيد أنه لا يمكن لإنسان ما أن لا يكون قادراً على الاعتراف به.

إذاً، فالاعتراف نفسه في مثل هذه الحال، يصبح كافياً للتعبير عن الوفاء ....

ولكن ... هل نجد كثيراً من الأوفياء في دنيانا الواسعة المعالم؟

هذا هو السؤال .... أما الجواب فهو أننا لا نكاد نلمح ظلال الوفاء إلا نادراً في هذه الأيام ....

ترى ... لماذا انعدم الوفاء أو كاد؟

حقيقة لا بد من قولها، قبل الجواب على هذا السؤال ! وهذه الحقيقة هي أننا عندما نعترف بالجميل، نُلزم أنفسنا بردّه عند القدرة على ذلك ....

والالتزام بالشيء، ولو كان بادىء ذي بدء، مقدّمة بلا نتيجة يكاد يصبح غلاً في عنق الملتزم، يُشعره، ولو بينه وبين ذاته، بأنه دون مستوى الوفاء ....

من هنا نرى أن الآخذين منا كثيرون والمعترفين بما يأخذون هم في مستوى الندرة .... وهذا إن دل على شيء، فإنّما يدل على ضآلة الشخصية عند أولئك الذين لا يقيمون للوفاء وزناً أو أهمية. فالشخصية المتماسكة القوية، وإن عجزت عن رد الجميل تستطيع أن تعترف به فخورة باعترافها مستعدة – تلقائياً – إلى الرد بالمثل، تبعاً لطاقتها عند الاستطاعة ....

معنى هذا أن الوفاء في شقيه الأول والثاني، أو في كليهما، نوع من الدلالة على تمرس الشخصية بفاعليتها وبصدقها في النية والفعل ....

وإن عدم الوفاء هو نوع من الشعور بالنقص، وبتفاهة الشخصية وضآلتها.

ومن هذين النقيضين، يجب علينا أن نختار لأنفسنا المكان الذي نستحق من التقدير، لا من انتقاص القدر.

شبابنا والعلم ...

يتهافت شباب هذا العصر على طلب العلم، حتى كأنهم أسراب من الطيور الظمأى يلوح لها نهر متدفق الأمواه، فتهوي عليه وقد أخذ منها الظمأ مأخذاً لا يطاق ... ولعل في هذه الظاهرة، أصدق تعبير يمثل الطموح إلى مواكبة الحضارة، كدليل على أن إنسان هذا العصر، قد تخلى عن نزواته البدائية، وتخلى عن شعوره بالضآلة، فأصبح يحاول إكمال ما ينقصه من المعرفة بالانصباب على روافد العلم والثقافة ومنوّعات الفنون والآداب.

إلى هنا والقضية طبيعية بالنسبة لروحية العصر المتطور ... غير أن الشيء غير الطبيعي، هو أن يكون العلم وسيلة لا غاية في حد ذاته ... وبذلك يكون للمتعلمين حظ التعلم دون استمتاع بحلاوة العلم، لأنهم يسعون فقط إلى تأمين معيشتهم بواسطته. ورغم أن العلم جميل، وإن كان وسيلة للعيش، إلا أن جماله يتألق عندما يصبح هدفاً بحد ذاته، لأن فيه كنوزاً من الفكر والمعرفة والمعاناة، تجعل من مقتنيها صاحب ثراء لا يُقدر بثمن مادي، مهما كبر شأنه وعدده وضخامته....

صحيح أن العلم كهدف للعيش هو أفضل من الجهل والجمود ... وصحيح أنه مهما كانت ظروف طلابه يبقى له أفضلية التقدير والاحترام... ولكن الأجمل من هذا وذاك، أن يكون العلم هدفاً للوعي، وهدفاً لاجتلاء الفضائل، وهدفاً لإعلاء شأن المخلوق العاقل، وهدفاً للوصول إلى مقاصير المعرفة الحقيقية الجوهر الوجود.

لقد آن لنا أن ندرك أهمية العلم في هذا العصر القائم على الاكتشاف والمعرفة وتشغيل العقل، كما حان لنا أن نكتفي من طلب العلم بالوصول إلى منعطف الوظيفة، أو إلى المركز الذي يسمح

لنا باستغلاله كمكسب مادي أو معنوي، لأن في العلم عظمة هي في جوهرها، الفارق الكبير بين اللؤلؤ والصدف أو هي الفارق البارز المثير بين إشعاع الشمس وبين أضواء الشموع المترنحة، والخافتة الشعاع !

أجمل من الحب

.... لا يختلف اثنان عاقلان على كون الحب نعمة لا أثمن منها ولا أحلى .... إنها أصل جميع التفاعلات الوجدانية النابعة من عمق أعماق الإنسان الحي المشاعر. فالحب هو الحب الجامع للقلوب والنفوس على جادة الخير، والمانع لالتقائها على دروب الكراهية والشرور .... والحب، هو ذلك النداء الإنساني القوي الصوت رغم نعومة أصدائه الذي يهيب بنا إلى التسامح وإلى أخذ الأمور على أحسنها، والإخلاص قولاً وعملاً وتأملاً ونصحاً، وترابطاً وتأثراً وانفعالاً بالواجب والمستحب على النحو الذي يُرضي النفس ويُريح الإحساس، ويعود بالنفع على كل حركة من حركات وجودنا الفاعل !!

إن كل شيء في هذه الحياة يتعرض للملالة والسأم، حتى ولو كان نابعاً من الرغبة الصادقة فيه، ما عدا الحب، فإنه يزداد إغراء في الإقبال عليه، ويتضاعف تألقاً في جميع صوره الخافية والظاهرة بمقدار ما نزيد من الشعف به والتجارب مع لزومياته . بيد أن هنالك شيئاً أهم من الحب، وأجمل منه، رغم كونه شرطاً من شروط افتراضه، وأساساً لديمومة بقائه حيث نريد له البقاء على ناصية الوجود المشرق ... هذا الشيء هو إقدامنا على التضحية بما نحب من أجل من نحب، دون أن نفرض شرطاً على التضحية. إن الحب هو القوة المتدفقة من أعماقنا، والتي تحفر أينما حلت، مكاناً لها يشع منه الضياء، وتضوع منه روائح أين من حلاوة رفيقها تهاويم العبير ... ولكن التضحية هي خلاصة الحب، ومستقر مطافه ونهاية استقراره الحالم بالديمومة والاستقرار والانسجام الحقيقي مع غاية وجوده.

إذاً ... ومهما كان الحب جميلاً ورائعاً ورافداً يتمنى كل منا أن ينهل من معينه الصافي والخلي من الأقذاء... فإن التضحية بكل ما نحب من أجل من نحب تجاوباً مع روعة الحب وصدقه وطهارته، هذه التضحية هي أجمل من المحبة أو الحب بما في هاتين الكلمتين من إمكان الفصل بينهما، حتى ولو كانتا أصلاً، ذات معنى واحد، لا يقبل الانفصال !

عندما تستعصي الدموع ...

.... دموع الإنسان، هي بمثابة السيولة المادية لديه، كثيراً ما تكون قابلة للطواعية، وكثيراً ما تكون عرضة للاستعصاء، وذلك حسبما تدعو الحاجة، وتتجاوب معها قدرته على جعلها مقبلة على ذلك التجاوب المريح، ودون إجهاد أو إرغام.

والاختلاف بين السيولة المالية وبين سيولة الدموع المريحة كبير جداً، بحيث يمكن في الحالة الأولى أن نستقرض أو نستجدي أو أن نستعين بالغير، وأما في الحالة الثانية فلا حيلة أمامنا سوى الحرقة أمام فقدان السيولة، أو الارتماء في أحضان اليأس عند حالة الرفض والاستعصاء ومن هذه النقطة بالذات نجد الذين تسعفهم دموعهم على تفريج كروبهم، أسعد حالاً من أولئك الذين تتحول مدامعهم إلى مجامر نفسية تشتعل حرائقها في نفوسهم الشقية، فيترنح لهيبها في مآقيهم، كأنه سوط عذاب يلتمع أمام أحداقهم، لا يستطيعون له رداً، ولا يستطيعون له احتمالاً، وليس أمامهم سوى الآهات يندفعون نحوها، كالطفل المرتاع عندما يهجم على أحضان أمه، هرباً من خوفه وقصوره وضعفه، إذا لم تسعفه عيناه على البكاء !!

... ترى؟ لماذا تبدو الدموع طيعة بعض الأحيان، وتكون عصية في أحيان أخرى؟

... يقيني، أنها حالة لا يعرفها إلا أولئك الذين يعانون من الحياة عكس ما ينتظرون. وبصورة أعنف مما يتصورون !! وإذا كانت حياة الناس كلهم حافلة بالمتناقضات، ولا يخلو أحدهم من المنغصات – ولقد خلق الله الإنسان في كبد –، فإن بعض الناس يختصرون آلامهم بالهروب

من الواقع، وبعضهم يطفىء أوار شقائه بدمعه، وبعضهم يقضي على شقائه بابتسامة ساخرة، ولكن المأساة تكمن في نفوس الذين يرون أنفسهم عاجزين عن اللجوء إلى أي حل من تلك الحلول المريحة، رغم سطحيتها وسذاجتها الظاهرة !

إثنان فقط من الناس يمتنعان عن الهلع والهروب والبكاء:

المؤمن الذي يتقبل الحياة كما هي لأنها قدره، ولا تهرب من القضاء والقدر، ثم لأنها تجربة لمدى قدرته على الصبر وعلى التعلق بحبال خالقه الذي شاء له هذا الامتحان الحياتي المثير ... ولهذا، لا البكاء وارد لديه ولا الهروب يخطر له على بال ... وإنما الذي يفعله، فهو المزيد من الاحتمال والمزيد من الإيمان بالقضاء والقدر، والمزيد من الابتسام على غير هزء ولا سخرية، ولا شعور باليأس والاحتراق بالغصة والحرقة والأنين !!

والفنان الأصيل هو الذي يغمس ريشته في مجامر آلامه ويصنع منها لوحاته الرائعة الفن، حتى تكون نبراساً لأبناء الحياة، يجتلون منها قصة ما يعانيه الإحساس المرهف من الارتطام بواقع الحياة، التي أرادها الله أن لا تكون متركزة إلا على التعب والعذاب والآلام ... ولعل في عنفوان النفس الشاعرة تعويضاً عن مأساة إيلامها واحتراقها في مجامر الشقاء، لأن في ذلك العنفوان الذاتي الشهي مرتبة تضع الفنان في واحة تتألق منابع سعادتها من ذاته، بحيث لا يشعر صاحب تلك الذات بأية غضاضة ولا حرج، إذا ما شاهد دماءه تسيل حوله من كثرة إيلامه، لأن في تلك الدماء مِداداً لريشته ومناهل لإحساسه يرتشف منها ما يجعله أن يكون ملتصقاً في صفوف المؤمنين، الذين لا يعترضون على مصاعب الحياة إيماناً منهم بحكمة مشيئة واهب الحياة !! ولا بأس إذا استعصت عليهم الدموع !

*

خاطر للتأمل

الأدب هو حلية العقل، وزينة الفكر وتُحفة الثراء... والأدب موهبة واكتساب معاً!

ومهما حاول المرء أن يكتسب أدباً، فإنه لا يفلح إذا لم يكن موهوباً .... وكذلك، مهما كانت موهبة الأديب قيّمة، فإنها تبقى بغير صقل ولا قيمة حقيقية، إذا لم تكسبها الثقافة الواعية لماعيتها الصافية !! لقد حفل العالم، على تنوع أراضيه ومعالمه وأزمنته بكثير من أصحاب الثراء والجاه والمراكز الاجتماعية المرموقة... بيد أن جميع هؤلاء باتوا هباء بعد مرور عام أو عقد أو قرن من الزمن، على مفارقتهم للدنيا الزائلة !!

غير أن مرور الأزمنة الطويلة الآماد، لم يمحو الأدب وأهله من ذاكرة التاريخ !!

.... إن هذا الواقع بالنسبة لمن طواهم الفناء بالنسيان، هو أقسى في مرارته من تجاهل الأدب الحقيقي والأدباء المجلّين في زمننا العابث اللاهي، زمننا الذي طعت فيه أصدافه على جواهره!!

ولعل تعزية الأدباء الوحيدة، وهي عظيمة الأهمية، هي أنهم باقون حتى وإن فنينت أجسادهم، رغم عبث اللغو الطائل، والغرور اللاهي، اللذين سيزولان أيضاً، وتبقى معرة ذكرهما فقط، بينما سيبقى للأدباء الحقيقيين مجد الخلود!!

ذلك الفراغ الرهيب.

بماذا نملأ الفراغ ؟ وكيف نستفيد من ساعات العمر الخالية من العمل والمسؤولية؟ وهل يحق لنا أن نهدرها بطريقة بوهيمية لا تعني سوى التبدد والضياع في دروب التيه واللاوعي واللامبالاة؟ إنها أسئلة نطرحها على أنفسنا، كلما احتوانا زمن لا عمل فيه وعندما نشعر بالميل إلى تخفيف أعباء العمل عن كواهلنا المتعبة. ولعل أطرف ما في الأمر أن القليلين منا هم الذين يعرفون كيف يستفيدون حتى من الفراغ الرهيب. إننا كبشر، لسنا وحدنا نعاني من الحيرة أمام هذا الفراغ الذي كثيراً ما نتمناه، ثم نجد ذواتنا تفر منه بعد برهة غير طويلة، لأنها تشعر بثقله، وبطول ساعاته، وبملالة قد لا تشعر بها أثناء العمل المنتظم معظم الأحيان. فالحيوانات والطيور والنباتات ينتظرها الفراغ بين حين وآخر، فتعبر حسب طاقاتها المحدودة عن ضيقها به إذا طال، وعلى طريقتها

الخاصة ... فالحيوان يلجأ إلى الاسترخاء والغفاء والتمطي عند سأمه من الفراغ، والطير يستكين ويجمد الشدو في حنجرته الرقيقة الحداء، والنبات يتوقف عن النمو ليتلهى بتنكيس أفنانه وأوراقه في شكل ذبول يشبه الإغماء....

إذا، فالفراغ راحة بعض الأحيان، وسام في أحيان أخرى، ونوع من الشعور بالجمود والموت في بعض الأحايين، أي عندما يطول أمده ويصبح عاملاً على فقدان الإحساس بالذات، أياً كانت تلك الذات، وحتى لو وقفت أحاسيسها عند نقطة الغريزة، غريزة حب الوجود، وحب البقاء، وديمومة التفاعل مع ما انوجدت له في هذا الكون الموّار بالحركة والاعتمال والانفعال.

وإذا شئنا أن نُجيب على تلك التساؤلات بصدق وتجرد، فإننا نجد غرابة في النتيجة، واستغراباً للواقع، إذا قلنا بأن بعض الناس، لا يحسنون الإفادة من الفراغ، كما يحسن ذلك الحيوان والطير والنبات. إن هذه المخلوقات التي لم تتميز بالعقل قد تقضي معظم أوقات فراغها في النوم أو الجمود ... وهذا أمر سيىء، إذا قسناه بمقياس العقل ... ولكن الأسوأ منه فعلاً، هو أن يلجأ الإنسان العاقل إلى إشغال نفسه الخالية من العمل الواجب والمسؤول بالتوافه من القيل والقال والنميمة والافتراء والاسترخاء في غيوبية عن الضمير والهداية وتقوى الله، بحيث لا تعيش في مشاعره سوى النزوات البهيمية، أو التطلعات نحو المآثم والمفاسد والاستعداد للشرور.

إن الفراغ الطويل مأساة في حد ذاته ... وأكبر من تلك المأساة، أن لا يحاول الإنسان القضاء عليها بالتأمل الواعي والاستعداد المفيد، وإنما أن يقضي فراغه بالارتماء في أشداقه التي لا يتجنبها سوى العقلاء....

فهل نعرف كيف نملأ فراغنا، حتى لا يكون للمخلوقات غير العاقلة تفضيل واقعي على بعض المخلوقات العاقلة؟

أبلغ الظن أن كثيرين منا لا يرحمون أنفسهم بالاستعلاء بها عن حضيض تفاهة الضياع في مستنقعات الإثم، والتي يولدها الفراغ الطويل، عندما يجهلون أو يتجاهلون تأثير مأساة الفراغ

القاحل، ولا يسدونه بالخير والتعبد، والعمل على استغلال جميع ظروفه، ولو بالغفاء عن استجابتهم للمفاسد والشرور !!

الناس بين الواقع والمجهول .

... لست أدري متى يصل الناس إلى حافة الرضاء عن الواقع الذي يعيشونه، وتتوقف لديهم آهات الممل من وجودهم حيث هم. حتى ولو كانوا يفترشون الطمأنينة ويلتحفون العدالة، ويحيون في ظل بحبوحة رزق وسعة جاه وسداد اتجاه !؟

هل يعني ذلك أن الإنسان ولد مع الآهة وستبقى لازمته إلى نهاية الطريق؟ أم يعني ذلك أن الإنسان يلتفت دائماً إلى المجهول، يحسبه الأفضل، مهما كان واقعه على قدر كبير من الأفضلية المحسدة، والتي لو حافظ عليها برضائه عنها فقط، لكان امتداد إشراقتها يعني مزيداً من الألق والصفاء والرخاء ؟!

يقيني، أننا لو حاولنا تفسير هذه الظاهرة المميزة للناس، عبر العصور الماضية بظلماتها، والحالية بضوضائها، لتبين لنا بأن سر محبة الهروب من الواقع الجميل، إلى المجهول الحافل بالتشويق، يعود إلى فقدان طاقة الاستيعاب الضرورية لحسن التجاوب مع الواقع، أو إلى انفعال عصبي تعصف به حمى الأحلام الراهجة، فتجعل من الإنسان كتلة ملتهبة الحماس لاكتشاف المجهولات لأنه يستشعر في أعماق ذاته عجزه عن معرفة الغيبيات، أياً كان نوعها، ومهما كان نتاج حملها من الإسعاد أو الإشقاء !!

وهذان التفسيران، إن دلا على شيء فإنما يدلان على أن النفس البشرية يبقى لغريزتها، على عقلانيتها، تأثير عفوي، ولا تملك إزاءه سوى الانصياع لأهوائه، بصرف النظر عن النتيجة !! إنني أفهم جيداً أن يفتش المريض عن الدواء، حتى ولو كان في نار يُكوى بها جسمه، ولكنني لا أفهم كيف يفتش المعافى عن الدواء وهو ليس محتاجاً إليه ؟... ليس في هذا القول نوع من

الغموض، كما يبدو لمن يشاء أن يوغل في تحميل الكلمات أكثر مما تحمل وتعني، وإنه لقول نابع من واقع الناس، عبر كل زمان ومكان، وهو نتيجة الحاصل معاناة البشرية منذ كانت، وحتى تزول، وليس فيه أي استنتاج يعتمل فيه جنوح الخيال ! ولعلنا في إعطاء الأمثلة الحية على هذا القول، نكون قد وقفنا في نقطة توقظ فينا الاستغراب والذهول ... وعلى سبيل المثال نقول : يتطلع اليافع إلى الشاب، فيحاول استعجال حلق شاربيه وعارضيه رغم طراوة عوده ... فإذا شب رأى شعراً كَثاً يدل على الرجولة .... ومتى أصبح رجلاً تمنى لو وجد طريقة تعيد إليه نعومة جلده ورقة عضلاته ووسامة نظراته !!

وعلى سبيل إعطاء مثل آخر، نجد إنساناً يمتهن الصناعة أو التجارة، ويكون في حال من النجاح كثيراً ما يدعو سواه إلى غبطه فترى هذا الرجل برماً بالحال، يشكو نقص أرباحه، ثم يفتش عن إضواء نفسه بالمتاعب، حتى يصل إلى الثراء الكبير ... وإذا وصل بعض الأحيان فإنه يعود إلى نفسه معتذراً عن إجهادها، فيجدها تقول له: أما كان بإمكانك أن ترفق بي في المجهود حتى نكون في حالة انسجام متكافئ مع الواقع الجميل الذي كنا نعيش فيه؟

وما يصح في الأفراد يصح في الشعوب ... ألم نجد كثيراً من شعوب الأمم كانت على قسط كبير من الحضارة، كاليونان والرومان والفرس، وحتى العرب أنفسهم، ثم حاولت هذه الشعوب أن تهرب من واقعها إلى مجهول أفضل، فانطمست معالم واقعها في غياهب ما كانت تسعى إليها عن طريق القفز السريع، وتكسرت أطر احلامها حتى غدت تبكي على واقع ماضيها المشرق، والذي كان بإمكانها أن تزيد في معالم إشراقه، لو عمدت إلى الوعي في الاستزادة، وإلى عدم استعجال الزمن الذي لا يعترف بالارتجال !!

هذه حالات قليلة من حالات كثيرة تظهر لنا أن الإنسان عجول بطبعه كثير الملل من واقعه، إذا لمح القمر الساهر البهي تمنى انقضاض الشمس الساطعة عليه، وعندما تلفحه الشمس بسمومها يعود إلى الشغف بالقمر والنجوم والصفاء، وما يرافقها من نسمات عليلة باردة ناعمة ؟!

إننا لو قمنا بعملية حصر لمثل هذه الحالات التي يفضل فيها الناس المجهولات على الواقع الملموس، فإننا نخرج بحصيلة واحدة هي أن الإنسان مجبول باستئثار الأنانية، ومطبوع على حب التغيير والتجديد، حتى ولو كان سعيداً في حاضره، وغير مطمئن إلى المزيد من سعادة غده !!

إننا لا نحاول الحد من طاقات الطموح الإنساني الفاعل، ولا نريد القضاء على روح التوثب العالية في صدور الناس الراغبين بالمزيد من القدرات والعطاءات الحياتية الفاعلة، ولكننا نريد القول بأن تفتيش المريض عن دواء، ومحاولة العليل للحصول على العافية، وبذل المجهود من أجل القضاء على واقع سقيم بواسطة جديد سليم، هذه الأشياء هي مستحبة وواجبة على كل إنسان يتمتع بالشعور ويتحسس بالمسؤولية ... ولكن، أن يفتش الصحيح عن مزيد من الصحة بالعلة، وأن يسعى الغني إلى زيادة ثرائه بالتخمة، وأن يفضل المرء على نهاره المشع ليلاً يحلم فيه بأن يصبح القمر أكثر وأقوى ضياء من الشمس، فهذا هو منتهى الدلالة على سقم التفكير، وعلى الغيوب عن عالم العقل بالاتجاه نحو عالم الغريزة، كما تفعل الشياه عندما تجتاز المروج الخضراء ظناً منها بأنها ستقف على مروج أكثر خضرة، فإذا بها تقف على نواتئ الأشواك، وقد لا تستطيع العودة إلى الواحات التي تركتها لتعبث فيها سوافي الرياح القاسية !!

لذة العطاء ....

العطاء هو إيثار للغير على النفس، كما يعني بتعبير أوضح أنه إضعاف لما نملك بغية تقوية من تعطي ....

وسيان كان العطاء مالاً أو نصحاً أو تجاوزاً عن إساءة، فإنه لا يعدو كونه ملزماً للمعطي بالتضحية والإيثار.

من هنا يبدو جلياً، أن العطاء صعب على الناس ككل، وإن كان سهلا على الناس كجزء.

ولكن ... برغم ما في العطاء من صعوبة، فإن له لذة خاصة لا يحسن بها إلا الذين يعرفون لذة العطاء ....

ولذة العطاء هي أثمن وأطيب وقعاً على النفوس الكبيرة، من لذة الاستئثار، مهما كانت الأثرة دسمة أو شهية.

إن العطاء نوع من الإيمان بالله المعطي الأكبر ....

والعطاء شعور ذاتي بالقدرة على الشعور بأصالة الذات المنسجمة مع مقوماتها الإنسانية.

والعطاء شموخ نفسي نستعلي به على ضآلة المعطيات، التي مهما بلغت قيمتها تظل دون مستوى الإحساس بالسيادة عليه.

والعطاء إسعاد للنفس المعطية، لأن هذه النفس تسعد إذا كانت كبيرة، بإسعاد الآخرين المحتاجين إلى العطاء.

والعطاء وقفة مع سمو الخلق ورفعته، تتجلى فيها كل معالم الإنسانية الرفيعة.

والعطاء مد في حياة المجتمع المتآلف، وجزر لأمواج الكراهية، ودفع لدمع المحتاجين، وجذب لنسائم الثقة المتبادلة بين القادر على العطاء والمحتاج إليه ....

ونعمى ... للمؤمنين بلذّة العطاء....

الإنسان بين اختيارين

... مما لا ريب فيه، أن يحتاج كل إنسان إلى الثقة بنفسه، حتى يستطيع ممارسة دوره الإيجابي في الحياة ... والذي يجب أن لا يهمله أي إنسان هو أن يعرف بأن الاطمئنان النفسي هو منطلق الثقة بالنفس، وهو بالتالي ركيزتها الأولى في مجال الفاعلية البناءة.

ولكن ... هل من السهولة في مكان يسير، أن تتأمن للإنسان ثقته بنفسه؟ هذا هو السؤال الذي يحتاج إلى وعي عميق حتى ينتهي الجواب عليه بالصواب السليم... ولقد قلنا بالحاجة إلى الوعي العميق، ولم نقل بالوعي فقط، لأن العمق يعني تطوير الثقة بالنفس بحيث تصبح نتيجة حتمية للاطمئنان، وهذا الاطمئنان المسعد، لا يوجد إلا في الثقة بالله، مهيمناً على الوجود بكامله، وكافلاً لسيرورته بانتظام معجز، وخالقاً لكل ما فيه من ذرات تجمعت بمشيئته وأصبحت كياناً لهذا الكون، الذي ما كان ليقوم لولا قدرة الخالق القادر على ما في الوجود وما قبله وما بعده، بما يملك من طاقات يعجز حتى عن فهمها أفذاذ المفكرين لولا أضواء الهداية والإيمان العميق، وإذا توصلوا لفهمها، أعجزهم كمال الفهم !

إذاً، فالثقة بالنفس مرتبطة بوجوب الثقة بالله، وكنتيجة لترابطهما يبرز الاطمئنان النفسي الذي يسوق إلى النجاح، ويقود العامل والعمل في طريق قويم لا تكتنفه النتوءات والمنحدرات .... وبمقدار ما تكون الثقة بالله قوية ومتماسكة اليقين تكون الثقة بالنفس مجلبة للاطمئنان، ويكون الاطمئنان باعثاً على الانسجام مع العمل، وجالباً للسعادة معه، ومحققاً لأكبر قدر ممكن من الفائدة المطلوبة. ولو أننا أجزنا لأنفسنا فرصة التساؤل عن مدى الفارق بين الثقة واللائقة، لبانت لنا بكل وضوح، معالم الضياع التي يحترق في لظى حيرتها المشككون والمتشككون بالإيمان وبما تحمله أخبار الضالين، الذين يعيشون في حمى الصراع القاتل لضمائرهم، عندما يغلقون بصائرهم عن أضواء اليقين، ويفتحون قلوبهم للغواية وللجحود، والكفر بمن أسبغ عليهم نعمة الحياة !

ترى، أية قيمة للإنسان ... يجحد أنعم خالقه عليه ؟! أو أية قيمة لمن لا يثق بنفسه بعد ثقته بربه ؟! وأي عيش هو عيش المغلقين قلوبهم عن محبة الله، وعن الإيمان بعظمته، وعن الاعتراف بأفضاله وهي لا تحصى ؟! وهل يمكن لنا أن نثق بمن لا يثق بدينه ويفقد ثقته بنفسه ؟

يقيني أن هذا السؤال لا يحتمل سوى جواب واحد عليه ... وهو : لا ثقة بفاقد الثقة، ولا محبة لمن لا يجد نفسه مطمئنة في محبة الله ... ولا جدوى ممن تحتويهم غياهب الضلالة فتحرمهم حتى الشعور بسعادة الوجود المطمئن الفاعل !!

وهكذا، يكون الإنسان بين اختيارين، وعليه أن يختار لنفسه المكان الذي يريد... ويا لتعاسة من يختار الديجور ويبتعد عن مشارف الهداية والنور !!

أنانية ....

لدى كل مخلوق في هذه الحياة نزعة ذاتية، تشده إلى تحقيق ما يستطيع تحقيقه، بصرف النظر عما يلحقه ذلك التحقيق بغيره من النفع أو الضرر ... ولكن هذه النزعة تكون قوية أو ضعيفة، تبعاً لما يشعر به المخلوق من واجبه تجاه نفسه في خصوصياتها، وتجاه مجتمعه وأمته في عمومياتها، لأن الشعور يختلف لدى المخلوقات باختلاف تكوينها الذاتي، وباختلاف مفاهيمها وطاقاتها على الوعي والاستيعاب.

ولعل المخلوقات البشرية، وهي التي تتميز بالعقل المدرك تملك أكبر طاقة من الاستيعاب والفهم، وإن كان للحيوان استعداد للوعي الغريزي، الذي يقوى عنده بمقدار حاجته إلى الأمن أو حاجته إلى الغذاء ... أما المخلوقات البشرية، فيتنازعها مجموعة من الرغبات التي يقل ويكثر إحجامه أو إقباله على تحقيقها، بمقدار ما يستشعر فيها من إرضاء لعواطفه أو استرضاء لعقله ومفهومه وتجاربه .

من هنا نستطيع أن ندرك الفارق بين نزعة الحيوان ونزعات الإنسان، لأن الأول تحكمه الغريزة فقط، بينما يتفاعل الثاني مع الغريزة والعقل معاً.

وانطلاقاً من هذا الفارق تتكوّن لدى الإنسان مسؤولية الشعور بالواجب، وإمكانية الحياء من سوء التصرف، بينما يتحجر الحيوان عند مطلب غريزته فقط دون التفات إلى سواه، وإلى ما يجبره عليه انصهاره في رغبته من تبعات ومسؤوليات ....

والظاهرة المثيرة للاهتمام، هي أن بعض الناس، مع الأسف، ولعله بعض غير قليل، يقلل من أهمية الشعور بمسؤوليته تجاه الآخرين، سواء كانوا مجتمعاً أو أمة، منصرفاً، تحت تأثير انفعاله بمصلحته الشخصية، إلى تحقيق رغابه وما تنزع إليه نفسه، صارفاً النظر عما قد يلحق ذلك من ضرر على سواه .... إننا عندما نجد أمامنا هذا النوع من الناس، لا بد لنا من إلقاء اللوم عليهم، ومن تعنيفهم على سوء تصرفهم ذاك، لأنهم لم يقدروا مسؤولية العقل والواجب، بل انصرفوا إلى إرضاء النزعة أو النزوة. مثلهم في ذلك مثل الحيوان الذي تحكمه الغريزة، بينما كرمهم الله بالعقل على الحيوان. فهل يعتبر هذا النوع من الناس ويتحمل مسؤوليته تجاه مجتمعه وأمته، ويُثبت أنه الإنسان المميز بالعقل، وعليه أن يكون في مستوى العقل المميز ؟!

بين العقل والعاطفة...

مما لا ريب فيه أن الناس، منذ وجودهم على سطح الأرض. مطاف الحياة، سيبقون على اختلاف في الرأي والنظر إلى أشياء هذه الدنيا ... ومن هنا نستطيع القول إن في الحياة أشياء أن ينتهي بهم . كثيرة يختلف الناس في النظر إليها باختلاف مفاهيمهم وأذواقهم، حتى لكان ما يحمل نوعاً من إشراقة في نظر البعض، يستحيل نوعاً من القتام في نظر البعض الآخر ... ومن خلال هذا الاختلاف في النظر إلى الأشياء تمتد الخلافات في وجهات النظر إلى جميع الأمور، مهما كانت ظواهرها بينة ولا تحتاج إلى مثل ذلك التباين النظري البارز.

ولعل أقرب تحليل إلى المنطق السليم لهذا التناقض، رغم المبررات لعدم وجوده في كثير من الأشياء والأمور، يعود إلى تحكيم الأهواء والأذواق، أكثر من تحكيم العقل في الواقع الذي يحتاج

إلى العقل، أكثر مما يحتاج إلى الذوق والانفعال المزاجي الخاص ... إننا لو نظرنا إلى الأمور بالعين المجردة عن الغرض، عين الفكر لا عين البصر، تستطيع أن نجد في كثير من الأشياء التي تبدو غير جميلة نوعاً من الجمال كبير البروز، ويكاد ينطق صراحة بتخطئتنا في النظر إليه من قبل.

ترى لماذا يغلب على الناس النظر إلى الأشياء بعيون الذوق والهوى والمصلحة، بينما لا يحتكم معظم الناس إلى المنطق السليم والعقل الواعي إلا في حالات نادرة؟

للجواب على هذا التساؤل، يجب علينا أن نعترف بأن الإنسان أي إنسان يبقى أسير انفعالاته الذاتية، غالب الأحيان، وقلما يستطيع التغلب على تلك الانفعالات، إلا في حالات بالغة الندرة، كان يكون ممن أوتوا قسطاً كبيراً من التجرد والزهد، وأن يكون على قسط كبير من الإيمان المطلق بربه، ومن بعد بأخلاقية الإنسان الأصيل الذات.

إن هؤلاء فقط يلتقون في وجهات النظر إلى الأشياء، ولا يختلفون في تقويمها إلا بمقدار ما تكون لديهم فوارق بين الطاقات العلمية والثقافية المصقولة بالمعاناة السليمة ... ولهذا علينا أن لا نستغرب ذلك الاختلاف في النظر إلى كثير من الأمور لدى كثيرين من الناس وعبر كل زمان ومكان !

لماذا يكثر الفاشلون في الحياة ؟!!

.... لقد اخترنا هذا السؤال فى صورته السلبية، وتساءلنا عن كثرة الفاشلين، ولم نختره بالصورة الإيجابية، لأن الفاشلين فى الحياة هم الأغلبية. وأرجو، كيلا يظن بنا الميل إلى التشاؤم، أن يستعرض كل منا معارفه في الحياة، ويُحدق جيداً في ما وصلوا إليه من تحقيق ذواتهم الفاعلة، ليدرك ساعتئذ بأننا نستعرض واقعاً صارخاً لا يمكن إنكاره، ولا يجوز لنا عكس مفاهيمه، حتى ننتصر على السلبية بما هو أشد منها وقعاً على الحقيقة المجردة !

وتبريراً لظاهرة الفشل المثيرة بين الناس نقول :

.. إذا كان على الإنسان أن يعمل في حقل لا يهوى العمل فيه فإنه مهما اجتهد وثابر وصبر لن يحقق نجاحاً يذكر، حتى ولو استخدم كل ما يملكه من طاقات ذهنية وجسدية ... ولعل السبب في ذلك يعود إلى الاختلاف بين ما يتصوره الإنسان صالحاً لتحقيق النجاح، وبين واقع العمل الرافض لكل ما لا ينسجم . طبيعياً – مع جوهره الأصيل !!

... إن هذه الحالة، تعني، بما لا يقبل الشك، بأن عدم نجاح كثير من العاملين في بعض أو في كثير من حقول الأعمال، عائد إلى فقدان الانسجام بين العامل والعمل، أو إلى عدم التلاؤم بين القدرات وبين ما تحتاجه الأعمال من ذلك التلاؤم الضروري لتحقيق التوازن بين الإقدام وبين ما نقدم عليه، حتى لا يضيع الزخم في غير موجب وكيلا يكون القصور حائلا دون ما يطلبه العمل من الزخم الفاعل !! .... ولعل أصعب ما يواجهه المرء في مثل تلك الحالة هو إدراكه لضياع جهوده في مهب الخواء المقيم بين مشاعره وواجباته، أو بين قدراته وبين السدود الحائلة دون جعلها صالحة لسلوك الطريق المسدود

... كل ذلك على ما فيه من سوء وتبديد للوقت والجهد، يبقى دون سوء الحالة التي يكون فيها العاملون مكرهين على عمل لا يحبونه أو يجتنبونه، ولا يكون لديهم من الطاقات ما يساعدهم على قهر كرههم لعملهم أو ما يجعلهم يتغلبون على العوائق القائمة فعلياً بين فرض المواجهة وكرهها في آن واحد.

ومن هذا المنعطف الخطير الذي تطل علينا منه مسلسلات الفشل المتلاحقة مع الناس في كل زمان ومكان، نستطيع القول بأن على كل إنسان أن يصارح نفسه بادىء ذي بدء، ويصارح الآخرين بذلك التناقض المثير بين عاطفته واستعداده الذاتي، وبين العمل الذي يقدم عليه، راغباً أو راهباً، أو محمولاً على أجنحة أمل في تحقيق معجزة الوصل بين السلبية والإيجابية في نقطة التقاء مستحيل !!

.... وأمام هذا الواقع المر الذي يذهب بكثير من الجهود هباء علينا أن لا نسترسل في الوهم القائل بأن المران يجعل من القصور إدراكاً، ومن الكراهية محبة، لأن ذلك الوهم يعيش في المخيلات السقيمة ولا تتقبله العقول السليمة ....

يبقى أمامنا درب واحد للنجاح، وهو الدرب الوحيد السالك، ألا وهو الرجوع عن الخطأ، وسلوك الطريق المستقيم، الذي يأخذ بنا إلى العمل الذي نحب، وإلى العمل الذي نجد فيه تلاؤماً نفسياً يزيد طاقتنا قدرة واستجابة ذات، إذا أردنا فعلا أن نحقق لذواتنا نوعاً من الرضاء المتكامل عند النجاح، أو نوعاً من العذر المقنع، عندما لا يحالفنا التوفيق في تحقيق ما نصبو إليه من التفوق في إحراز النجح المطلوب !! وقد صدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عندما قال : كُلٌّ مُيَسَّر لما خلق له» !

الأدب العربي إلى أين ؟!

كثيرون هم الذين سيهبّون للدفاع عن أنفسهم من الأدباء وقليلون أولئك الذين سيعانون نوعاً من الوقوف في تأمل صادق بما يكتبون ليعرفوا الحقيقة المرة التي وصلوا إليها رغماً لا قصداً، تحت تأثير المكافأة المالية، غير عابثين بما سيقوله التاريخ عن الفترة التي مروا بها، وكانوا فيها بعداء عن تقدير أهمية قوله عنهم، لا لأنهم عاجزون عن فهم الأدب العميق، بل لأنهم لم يشاؤوا أن يضحّوا بالقليل من إغراء الصحافة، في سبيل الكثير الكثير من رضاء التاريخ ....

ولكن ... ليقل المدافعون عن أنفسهم ما يشاؤون، وليحاولوا رد الواقع بالوهم الذي يريدون، فإنهم لن يستطيعوا طمس الواقع الملموس في نتاجهم المتناثر هنا وهناك، وفي كل صحيفة ومجلة حيث يبدو لهم أن الحقيقة هي في ما قلناه لا في ما كتبوا وسيكتبون. قولي بأن هذا الحكم على أدبائنا العرب لا يعني وجدير بالذكر كتاباً معينين، ولا يقتصر على بلد عربي واحد، وإنما هو موجه إلى المعنيين بشؤون الأدب والفكر العربيين، وفي جميع البلاد العربية .... إننا نعاني أزمة تعمق في

نشر رسالة الأدب العربي في هذه الأعوام ولا أقول الأيام، لأن الأدب ضائع بين كاتب مقلد، وكاتب يستبق منه توهما – وكاتب يعتبر بساطة الكلمة والمعنى والمبنى قواماً الأدب المحبّب المقروء، وكاتب يعتبر التعقيد أساساً للأدب العميق. وكاتب يجمع فتات أدب الموائد العربية والغربية ليجعل منها خليطاً نكهة تثير الشهية !!

... لست هنا فى معرض الهدم من أجل الهدم حيث أطل من عليه ليراني الناس ...

أجل من هذين النوعين، ولكنني أعاني قلقاً مصيرياً أدبياً، قد لا يكون في مصلحة أدباء العرب، إذا استمرت الحال على منوالها عدة أعوام أخرى، بحيث لا ينفعنا بعدها انطلاق من الوحدة التي أردناها لأدبنا في عصر لم يبق فيه مجال للسطحية والجمود!

.... وزيادة في إيضاح العجز الفكري البارز في نتاج معظم كتابنا العرب، نود القول بأن المسرحية تكاد تكون مفقودة في نتاجهم – لولا نفحات من توفيق الحكيم، والبحث الرصين العميق الجذور يكاد يكون صفراً – لولا العقاد وطه حسين وأحمد أمين ونعيمة والجاسر والزيات والقصة الهادفة المتكاملة تكاد تصبح في خبر كان، لولا نجيب محفوظ وثروت أباظة ويوسف إدريس والمقالة تكاد تصبح ضائعة في حلقة مفرغة لولا شذرات منتشرة في بعض مجلات العالم العربي، لا تكفي لتوضيح معالمها الحقة قياساً على ما تحمله إلينا الصحف والمجلات من سقيم النتاج والنقد؟ أين هو ؟ بل أين نحن من النقد الهادف؟

.... أما الرواية فقد نقول بأنها موجودة في مخيلة المصممين على خوض غمارها، فيما عدا بعض نادر تكاد معالمه تختفى في هذه الأيام ....

المعاصر العميق الفكر، ذي الأسلوب القوي الجذاب؟! لست أدري ماذا أقول، وأنا أرى جوائز البحوث والرواية تحجب عن أدباء العرب في معظمها، ولا أدري ماذا أقول وانا لا ارى في سورية ولبنان والعراق، ولا في مصر والسعودية والأردن، مجلة أدبية تقرأ فيها البحوث الموضوعية والإبداعية بشغف ولهفة، ويكون لمقالاتها أثر؟

لقد كان لنا في – «الرسالة» وفي «الثقافة» المصريتين منتجع نضبت مياهه وجفت خضرته... ولقد كان لنا في مجلة «المعرض اللبنانية بعض من غيث فكري، فانقطع بانقطاعها وانغمر بطغيان الصحافة في بيروت على الأدب ... أما مجلة «الأديب» و«الآداب» اللبنانيتان، فإنهما، رغم استعدادهما الطيب للعطاء، عاجزتان عن العطاء نظراً لضحالة معظم الفكر المقدم إليهما من شتى نواحي البلاد العربية ... وأما مجلتا «العربي» و«الهلال» فقد طغى عليهما اللون الإخباري، لولا بعض ومضات فكرية تتخلل صفحاتهما الكثيرة، على قلة وحصر ملحوظين.

بيد أننا برعنا في ترجمة الآداب الغربية وأفكارها بشكل واضح ... ومعنى هذا أننا مفتقرون إلى الطاقة الإبداعية الأصيلة بمثل ما غنينا به من الأدب الإنشائي البديع بعض الأحيان....

ولعلنا لا نثير عجباً إذا طرحنا السؤال مرة أخرى، وبصيغة ثانية عندما نقول: لماذا يعاني الأدب العربي العميق هذا السقم الظاهر ؟!

فاذا حاولنا الاجابة على هذا السؤال كان علينا أن نجرؤ على القول بأن كتاب العرب يمرون في مرحلة من العطاء السخي وكان علينا أن نجرؤ على تركيز تحت تأثير حب استيفاء بدل ما يكتبون، ولم يعد يهمهم بناء الذكر ولا إعجاب القارىء حتى إنهم لم يعودوا يهتمون بالنقد بل يعتبرونه تهجما غير لائق على أمجادهم القائمة فوق أعمدة الصحف السيارة الواسعة الانتشار...

ليت أدباءنا يستفيقون من الغفاء على قيثارة المادة فقط، هذا الغفاء الذي لا نريده لهم، ولا يريدونه لأنفسهم – لو فكروا باحكام على الأدب العميق الراسخ كالأطواد وهو نتاج كتاب مات بعضهم وما زال البعض حياً، وستبقى مشاعل أفكارهم مشبوبة تشق ظلمة الحياة؟! ... وبعد أن تركنا للقراء وللأدباء أنفسهم مجال الحكم على الواقع المرير الذي نعانيه من أدب هذه الأيام، بعد هذا الموقف الذي لم تترك لنا عجالة البحث عن حسنات سواه مجالاً للاختيار، ووضعتنا امامه موضع الإلزام... هل نكتفي بالحديث عن النثر؟ أم أننا سنعود إلى الشعر في دراسة أوسع لنضعه إلى جانب النثر في ما آل إليه هذان التوأمان من الهزال الموجع الأليم؟!

معظم الظن أن القضية تعود إلى مقدار أخذ قولنا على أحسنه كما تعود إلى الإيجابية الواعية التي سيُفَسِّر بها الأدباء محاولتنا النقدية لواقع أدبي نأباه، حفاظاً على مصير الفكر العربي الذي يعاني أقسى لحظات حياته بعد ماض طافح بعبقرية لن يطالها النسيان !؟

النصيحة الضائعة

... عندما نحاول أن نوفر على بعض الناس شيئا مما دفعناه ثمنا لتجاربنا مع الحياة، لا نجد غير النصيحة بابًا ندخل منه إلى وعيه، عارضين عليه خلاصة ما مررنا به من معاناة.

إننا عندما نفعل ذلك، نكون قاصدين النفع وحب الذات في أن واحد، ولكن المفارقة تأتي على عكس ما نتوقعه من النتيجة، إذ إن من ننصحه يأخذ علينا جانب حب الذات في إثبات معرفتنا، ويهمل الجانب الآخر الذي نتوخى فيه نفعه .... إن هذا الواقع الذي نصادفه في معظم تجاربنا الحياتية، ناصحين كنا أو موضوع نصح الآخرين، يبين بوضوح أن الإنسان تحكمه كبرياؤه ويتحكم به عنفوانه، وتسير به أهواؤه نحو ما يرضيها، حتى ولو كان ذلك السير على طريق الخراب ... وهذا، إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإنسان يحب أن يبرهن على قدرته الذاتية في تحمل مسؤولياته بصرف النظر عما تكون نتيجة تلك المسؤولية. وبهذا تضيع النصيحة، ويتهم الناصح بالغرور والتنطح، ويستمر دفع أثمان المعاناة من قبل المحتاجين للنصح والمشيحين عنه ويدور الناس في حومة تلك الاحتدامات الفكرية، إلى أن يتناوب الشباب مع الشيوخ دور الناصح، ثم يأخذ الأطفال دور الشباب في الرفض، وفي تحليل أصحاب النصح حسبما يروق لهم ويرضي أمزجتهم الخاضعة لتيارات المراهقة واليفاعة، والشباب المتداخل بينهما بصورة تفرضها طبيعة تتابع حلقات العمر الذي لا يعرف التوقف بحكم استمرارية الوجود...

بقي لنا أن نتساءل أمام هذه الحالة التي لا ينكرها الواقع: هل نكفّ عن إسداء النصيحة للغير، والدّين النصيحة كما جاء في الحديث الشريف؟ أم هل نسترسل في نصح الناس، رغم ما نلاقيه من السلبية في التجاوب الرافض، والمزمن الامتداد؟!

أغلب الظن أننا على ما في السلبية التي نصادفها من مرارة، سنبقى مستمرين في أداء الواجب الخلقي والديني دون ملالة أو كلالة، ومهما قيل عنا من شبه محاولة إظهار الذات، لأن الدين النصيحة، ولأن حبنا للآخرين المحتاجين إلى النصح، سيبقى الحافز الأقوى من السلبية المُرَّة، التي لا نستطيع استساغة مرارتها، سيان أكان طعمها قابلاً للاحتمال أو بالغ العلقم... ولكننا فوق هذا كله، سنبقى ننظر إلى تلك العملية الواجبة على كل قادر عليها نظرتنا إلى الأمل الذي لا نتوقع له سوى الذبول، لأنه مزروع في فدفد لا يعرف الخصب، وإذا عرفه فستحول الطفيليات دون إعطائه فرصة الإزهار بما نؤمله من نتاج النصيحة الضائعة !!